الفصل الأول

المحتويات

- أهمية البحث
- أهمية التحليل الفلسفي للظواهر
- كشف المغالطات مهمة من مهمات الفلاسفة

obeikan.com

obeikan.com

أهمية البحث

للبحث والكشف عن الظواهر أهمية كبرى، فالبحث حالة إنسانية رافقت الإنسان منذ وجوده على الأرض وهي تضمن له سلامته حين يتوصل عن طريق المعرفة حماية ذاته من شتى الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها.

أسئلة مختلفة تراود الإنسان، عن الموت، والأخلاق، والمال، والسعادة، والراحة النفسية، الخ... وهذه الأسئلة تُعبر عن هموم الإنسان اليومية، ويكتسب الناس المعرفة خلال سنوات حياتهم من التنشئة ومن التعلم، وعن طريق المعرفة والعلم يمكن الإجابة عن مجمل الأسئلة أو توضيحها، ونحن بحاجة ماسة كي نعرف إذا كانت الثقافة المنتشرة اليوم في مجتمعاتنا كافية لتحريرنا من هذه الضغوط وهذه التساؤلات.

"وللتأكد من ذلك لابد من النظر في الواقع "الأكاديمي" أو العلم "الأكيد"، الذي هو أدق وأشمل من قول العلم الصحيح. والذي يؤكد المعرفة في مقاومة جذور الجهل والاستبداد. وإذا كانت الأسئلة والتساؤلات أو الإشكاليات الأولية، المعرفية والعلمية والبحثية، تؤسس للبحوث والأطروحات، فما هي قيمة الجواب إذا لم يكن الجواب أكيداً، أو يراه صاحبه أكيداً؟ سواء صدرت هذه الإشكاليات والأسئلة عن ألسنة الناس ومن المجتمع، أو مما يقدمه الباحثون والعارفون حول الظواهر، وسواء كان ما يشكل فهمه من أشكالها ووقائعها ومظاهرها وعلاقاتها وقوانينها سلبياً أو إيجابياً أو محيراً... وسواء كانت هذه الإشكالية نابعة من خصائص الظواهر الاجتماعية أو من مجريات الأبحاث السابقة والقائمة حولها... فكل جواب بحاجة لتأكيد أي برهان، ... فاليقين إيمان واعتقاد ولا يكون أكيداً إلا بالبرهان... وما من حضارة في التاريخ إلا وكان أساسها العلم".[1]

---

1 دكتور مصطفى سليمان، استطلاعات الرأي العام التقنية والتجارب المحلية.

المطلوب هو العلم، العلم الصحيح المبرهن المقبول عقلاً وفعلا ليصبح بمنزلة العلم اليقين. فالعِلم الأكاديمي يساهم في عملية التطور، ونشر الوعي، عن طريق المعرفة العلمية المجردة، التي تمكن المجتمع من مواكبة التطور الإيجابي، وعلى الباحثين وقوف وقفة نقدية أمام البحوث السابقة لتوسيع حدود المعرفة وعدم التوقف عند معطيات محددة تحول الإنجاز العلمي إلى دروس متكررة، أو نظريات جامدة لا تخضع للتطور والتغير، فالمعرفة العلمية تنمو عن طريق اكتشاف الأخطاء وتصحيحها.

إذا كانت الدراسات السكانية تهتم بدراسة الإنسان ونوعية حياته فلن تكون مجرد إحصائيات فحسب، وإنما هي دراسات ذات طابع قيمي تهتم بمعرفة كينونة الإنسان، وكل خصائصه الاجتماعية والثقافية والنفسية والفيزيولوجية، للتغلب على التحديات الجديدة، ومواجهة بعض الأخطار والمخاوف التي قد تحصل في المستقبل.

أهمية التحليل الفلسفي للظواهر

وكذلك كما ارتباط علم السكان بالواقع البشري ترتبط الفلسفة أيضا بهذا الواقع، وتاريخ الفلسفة يؤكد ارتباطها بواقع الحياة اليومية وتاريخ الإنسان أشد ارتباط.

"وإذا كانت غاية الفلسفة ومعناها وقضاياها (محبة الحكمة) أو البحث في المعرفة لأجل المعرفة، التفلسف هو جهداً عقلياً يستهدف الكشف عن حقيقة جديدة، أو نزوعاً عقلياً يدفع إليه الشعور بالجهل، وتبعث عليه اللذة العقلية، ولا تسوق إليه مطالب عملية ولا معتقدات دينية، وهذا هو الذي سمي قديماً بالعلم، ومن هنا قيل أن العلم والفلسفة صدرا عن أصل واحد وأقترن أحدهما بالآخر" [1]

---

1 توفيق الطويل، أسس الفلسفة مرجع سابق.

لذلك فالنظريات وحدها لا تكفي لتحديد الظواهر ومعرفة الأسباب والنتائج، إنما هي بحاجة إلى الفكر والتحليل والدراسة النقدية والمقارنة للتوصل إلى معرفة أعمق، لأن ما يظهر على السطح لا يُعبر عن المحتوى الواقعي في عالم شديد التعقيد، حيث يضيع البعض بين دراسة الظاهرة ودراسة الواقعة؛ فالواقعة حدث يحصل بصورة مفاجئة، أما الظاهرة فهي متكررة وراسخة في المجتمع.

البحث العلمي يتطلب الكشف عن الغامض والمجهول، وأدراك ما لا يتوقع، وكم من النظريات العلمية قد تم اكتشافها بالصدفة، ولكن بعد إخضاعها للتحليل والنقد للتأكد من مدى صحتها تم اعتمادها كنظريات علمية مجربة ومدروسة وكم من النظريات تم استبعادها كلياً بعد التجارب المتتالية.

أن التحجر يزيد من التشاؤم، بينما الواقع يتطلب المرونة والمزيد من التعلم والتحليل والمراقبة الدقيقة، فالنقد الفلسفي العقلاني طريقة في التفكير تمكننا من اكتشاف الأخطاء بغية الوصول إلى الحقيقة؛ المعرفة العلمية عند **"باشلار" هي مجموعة أخطاء مصححة**، وهذه المعرفة عانت خلال تطورها من عقبات كثيرة ذات طبيعة غير علمية مثل: التكوين النفسي والأخلاقي للعلماء، فالمعرفة العلمية هي ذاتية في أساسها، وهذه الذاتية تمنع العلماء من التدقيق في الظواهر. "كما يُلقي **باشلار** اللوم على المعرفة العامية من حيث تصبح تعميم ساذج يجمد الفكر ويمنع العقل العلمي من التدقيق في الظواهر، بحجة إنها تشبه بعضها البعض، ومن مساوئ العمومية هذه، إنها تؤدي إلى غموض المعرفة، واستسلام العلماء للأحلام العلمية، بحيث يبدأ العلماء البحث عن تحقيق تلك الأحلام في أرض الواقع، وهذا أمر يؤدي إلى دخول العقائد إلى العلم."[1]

---

1 المعرفة العلمية بين العوامل الاجتماعية والبنية المنطقية، عالم الفكر، المجلد ٣٦، ٢٠٠٧.

- فهل يمكن إعادة الاهتمام بالقضايا الفلسفية، وتبيان مدى أهميتها؟.

إن التفلسف يخضع إلى ثوابت ووظائف يمكن حصرها في النقاط الأساسية التالية:

١ – **التحديد**: والتحديد هو بيان خاصية الموضوع بياناً واضحاً وكاملاً. والتحديد لا يقتصر على توضيح المفهوم بل يتجاوز ذلك بالتأمل في **الواقع الموضوعي**، الذي يصوره المفهوم.

٢ – **النقد**: النقد هو الذي يحرك الفكر الفلسفي حتى يتسنى له وضع السؤال الصحيح وإيجاد القول الصحيح ونفي القول الخطأ. الفلسفة تحاول التفكير في طبيعة العلم. وهكذا يكمن دور الفلسفة في تأسيس للفكر وفي كل ما أنتجه الوعي الإنساني في العلم والسياسة والاجتماع والأيدولوجيا.

٣ –**التوضيح**: الفلسفة محاولات تحليلية توضيحية، مرتبطة بالمعقولية الحالية التي ترعرعت في العلوم المختلفة.

يقول **فتغنشتاين:** "إن الغاية من الفلسفة هي التوضيح المنطقي للتفكير، وليست الفلسفة مذهباً وعقيدة، هي ممارسة ونشاط، فالممارسة الفلسفية توضيحية. مهمة الفلسفة تسطير الخط الفاصل بين العلم والأيديولوجيا، وتوضيح الأفكار والمفاهيم والمقولات".

٤ – **التشخيص**: أصبحت الفلسفة نشاطاً نظرياً داخل المجالات العلمية المختلفة، داخل الرياضيات والفيزياء واللسانيات، داخل التاريخ وعلم الأديان والسلالة ــ **ميشال فوكو**. لاحظ ذلك، وبين أن الفلسفة أصبحت عملية تنظيرية داخل المجالات العلمية، كما لاحظ ذلك أيضاً كل من **كارل بوبر وفتغنشتاين وهابرماس** وغيرهم من فلاسفة الحداثة.

وهكذا يمكن القول أن مهمة الفلسفة تكمن في التفكير في الواقع الفعلي المتمثل في المعقولية العلمية والتكنولوجية.

٥ – **التنظير:** هناك كثير من المشاكل الاجتماعية والتاريخية لا يمكن إحكام النظر فيها إلا من خلال نظريات علمية أو فلسفية أو دينية، ومن هنا تكون الفلسفة هي العلم الشامل بالمبدأ الأول والذي يكون أساساً لكل كائن ولكل فكر، فيعمل التفكير الفلسفي للوصول إلى مستوى الشمول والخطاب الموحد والمختزل لتنوع الواقع وتعدد معطياته، أي البحث عن المعنى المفتوح للواقع المتغير.[1]

كشف المغالطات مهمة من مهمات الفلاسفة :

إن اختيار موضوع لأبن خلدون في هذا الإطار له أهمية لتسليط الضوء على بعض القضايا الديمغرافية، والأهم أيضاً معرفة الأسلوب الذي اتبعه **أبن خلدون** في تدوين وتأريخ الوقائع، وكشف الأغاليط والمغالطات عند المؤرخين، وهذا الأمر حث ابن خلدون على تأريخ الأمم، لإظهار الجهل في أحوال العمران، ولتمييز الحق من الباطل في نقل الأخبار، ولكشف ولع بعض المؤرخين في المبالغة، خاصةً عند إحصاء الأعداد من أموال وجنود، لقد اعتمد أبن خلدون على التحليل المنطقي والإحصاء الدقيق في سرد الأحداث وتدوين الوقائع، وأورد بعض الأمثلة عن المبالغة فذكر أن المسعودي قد أحصى جيش بني إسرائيل بقرابة ستماية ألف جندي، وهذا عدد لا يمكن تصديقه، وكذلك أشار إلى بعض الأخبار التي تناقلها العامة، ولا يمكن تصديقها إذا تم إخضاعها لمنطق العقل، كقصة الزرازير التي تجتمع في يوم محدد من السنة حاملة معها الزيتون. وهذه الملاحظات المختصرة حول بعض القضايا في نظريات ابن خلدون تعتبر من أهم أسس البحث العلمي، الذي يعتمد التحليل المنطقي، وعدم تصديق الشائعات، والتجرد والموضوعية في تدوين الوقائع. أبن خلدون يهتم بشكل أساسي بأهمية الدليل الحسي الذي يقوم على التجربة،

---

1 فتحي التريكي، فلسفة الحداثة بيروت، مركز الانماء القومي ١٩٩٢ ص ٨٣- ٨٦.

وكل ما ليس له دليل حسي لا يفيد العلم في شيء. **أبن خلدون** يتحرى عن صدق المؤلفين في الرواية قبل أن يعتمدها، وهذه الأمور بسبب أهميتها كانت السبب المباشر الذي دفعه إلى ما سماه **"تأريخ الأمم"**.

"إعلم إن فن تأريخ الأمم، فن عزيز المذهب جم الفوائد، شريف الغاية... فهو محتاج إلى مآخذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحُسن نظر وتَثبت يُفضيان بصاحبهم إلى الحق، وينكبان به عن المذلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة، وقواعد السياسة، وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يُؤمن فيها من العثور ومذلة القدم، والحيدة عن جادة الصدق" مقدمة "ابن خلدون".

"توماس كون" يعتقد أن مشكلة العلم تعود إلى أسلوب تفكير المجتمع في عصر من العصور، ولا يمكن تفضيل نظرية على أخرى إلا بالعودة إلى النموذج العقلي لهذه العصور، وما دامت هذه النماذج نسبية من عصر إلى آخر، أي متغيرة متبدلة، فإن المعرفة الموضوعية تغدو مسألة غير واردة في العلم. فالعلم ليس موضوعياً وذلك لعدم وجود مقياس محايد، فوق التاريخ يمكن أن تحتكم إليه النماذج المختلفة بعضها عن بعض، في المبادئ والتكوين والأدوات والمفاهيم... فإذا كانت المعرفة العلمية عند **باشلار** تنمو عن طريق تصحيح الأخطاء، بحيث يمكن اعتبار العلم **مجموعة أخطاء مصححة** فإن المعرفة العلمية عند **كون** تخضع لتغير وتبدل **النماذج الإرشادية** لكل عصر من العصور، ويقصد **كون بالنماذج الإرشادية** لمجتمع علمي ما جماع المعتقدات والقيم المتعارف عليها والتقنيات المشتركة بين أعضاء المجتمع ذاته."[1]

بالتجارب الحاسمة، يمكن أن تتشكل أنواع معينة من المعرفة، وهذه هي

---

1 مرجع سابق.

غاية البحث العلمي المعرفي. ("قد أكون أنا على خطأ، وقد تكون أنت على صواب، وببذل الجهد قد نقترب أكثر من الحقيقة") ("كارل بوبر").

هذه هي مهمة الفلسفة وهي تعتمد على النقد العقلاني المطلوب لتحليل الظواهر الاجتماعية والسكانية، فالعلم ليس مجرد جداول وأرقام مبنية على تعدادات تشوبها الأخطاء، وأحياناً استمارات وهمية معبئة على طاولة المكتب لغايات تجارية أو سياسية، أو أبحاث مكررة ومنسوخة تبغي الكسب المادي أو المعنوي.

"أما الشيء الأخطر من ذلك فهو إن كل علم إنساني يتوق لإظهار نتائجه كرؤية شاملة للإنسان، ولإعادة تركيب "الشبكة" على طريقته الخاصة، فهذا الديموغرافي (عالم بإحصاءات الشعوب) يدعي شرح كل شيء عن طريق الديموغرافيا، وهذا الاقتصادي يُرجع كل شيء إلى الاقتصاد، وغالبا ما يكون علماء الاجتماع والتاريخ والجغرافيا والنفس والأخلاق "إمبرياليين" أكثر من سواهم. انطلاقا من هذا فأننا نتمنى ازدياد التجارب الحالية الهادفة إلى ربط الأنظمة المختلفة بعضها ببعض وإبدال الفكر الإمبريالي بفكر تأليفي يعيد للإنسان مجمل أبعاده... وغالباً ما تتجه الاكتشافات الكبرى لعلوم الإنسان نحو إعادة النظر بالقيم التقليدية، أو تلك التي يرغب حكام العصر في فرضها كقيم ضرورية أو قانونية. فمن الطبيعي أن تتعرض الأبحاث الجريئة إلى جميع أنواع الضغوط والقيود، في ظل جميع الأنظمة السياسية... وحين كان يسعى العلم لاكتشاف كيفية تحول المجتمعات والأنظمة الاقتصادية، وتحديد الحاجات والسلوك الإنساني، لا يعود له مفر من طرح قضية النظام القائم وسلطة رجال الحكم. ولا بد للباحث الأساسي في العلوم الاجتماعية ليقوم بهذه المهمة الخطرة والضرورية من أن يتكل إلا على وعي جمهور خبر الحياة تماماً".[1]

---

1 فلاديمير كورغانوف مرجع سابق.

إن المعرفة لا يمكن أن تكون معرفة ثابتة فهي بحاجة إلى إعادة تنظيم وتحليل وتجديد ، كي تتناسب مع متطلبات العصر وحاجاته المختلفة. فالفكر يجب أن يبقى مستعداً لتقبل أي جديد ، فلا ثبات في العلم، لان الثبات في العلم يعني موت العلم وكل المعارف تبقى قابلة للمراجعة وللمناقشة. الباحث هو كائن له انطباعات وله جذور في الماضي وهذا قد يدفعه أحياناً إلى تفسير الظواهر تفسيراً سيكولوجياً أو إيديولوجياً ولن يفيد الباحث التمسك بنظرية دون أخرى لأسباب عقائدية أو رفض قول لدواعي شخصية ولن يفيد الباحث إبراز مآثر هذا الشخص أو ذاك، أو نقد هذه الميول أو تلك، بل المهم هو النظر إلى التطور العلمي، والتقدم المعرفي، والتعايش بين مختلف الثقافات والحضارات، تاريخ العلم ليس تاريخ النظريات فحسب، بل هو تاريخ الوعي والصواب وتاريخ الخطأ أيضاً، ومهما كانت قدرات الإنسان عظيمة لا يستطيع أن يبدأ من الصفر في تشكيل المعرفة؛ فالمعرفة منظومة من العلاقات المتشابكة والمتلاحقة على مدى العصور، ولا يمكن النظر إلى كائن بمعزل عن باقي الكائنات، أو لجهة بمعزل عن باقي الجهات، فلا بد للباحث من التفتيش والتنقيب عن العلاقات المشتركة القائمة بين الظواهر، مستنداً على النظر العقلي من جهة، والملاحظة والتجربة والمقارنة من جهة أخرى.